الفصل الخامس:
فضل أخلاق الصالحين

الفصل الخامس: فضل أخلاق الصالحين

أخلاق الصالحين

قال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾[1].

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

أحاديث نبوية

* عَن أبي هريرة رضي الله عنه عَنِ النَبِي ﷺ قال: «**أَكْمَلُ المُؤْمِنِيْنَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ**»[3].

* عَنْ أَبِي الدَرْدَاء رضي الله عنه أن النَبِي ﷺ قال: «**مَا مِنْ شيء أَثْقَلُ فِي مِيْزَانِ المُؤمِنْ يَومَ القِيامَةِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وإنَّ اللهَ يَبْغَضُ الفَاحِشَ البَذِيُّ**[4]»[5].

عظماء بأخلاقهم

خلق من الجنة :

قيل تزوج رجل بامرأة، فقبل الدخول ظهر بالمرأة مرض الجدري . فقال الرجل: اشتكت عيني.

---

(1) سورة: البقرة، الآية: 263 .
(2) سورة: آل عمران، الآية: 134 .
(3) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .
(4) البَذِيُّ: هو الذي يتكلم بالفحش ورديء الكلام .
(5) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح .

ثم قال: عَمِيتْ عيني لطفاً بها في نفي الحزن عنها بظهوره على ما بها من الجدري.

فزفَّت إليه المرأة، ثم ماتت بعد عشرين سنة وهو فيها يوهم المرأة أنه أعمى، لئلا تحزن.ففتح الرجل عينيه بعد موتها، فقيل له في ذلك!! فقال: لم أعمَ ولكن تعاميت حذراً من أن تحزن.

فقيل له لكمال مروءته وشفقته على الخلق: قد سبقت الفتيان ـ أي سبقت أهل المروءة ـ.

هذا يشبه ما وقع لحاتم الأصم لما جاءته المرأة تستفتيه، فخرج منها ريح في حال كلامها معه، فاستحيت وتداركها وجبر حالها فقال لها: ارفعي صوتك حتى أسمع ما تقولين! ففرحت لكونه لم يسمعها، لذلك سُميَّ «بالأصم»[1].

❀ ❀ ❀

خلق وكرم

قيل: إن رجلاً من الحجيج نام بالمدينة المشرفة فتوهم أن هيمانه ـ كيسه ـ سُرق، فخرج فرأى جعفر الصادق ... وهو لا يعرفه!! فتعلق به، وقال له: أنت أخذت هِيماني؟

فقال له: ما الذي كان في داخله؟

فقال: ألف دينار، فأدخله داره ووزن له ألف دينار.

فرجع الرجل إلى منزله ودخل بيته فرأى هيمانه في بيته وكان قد توهم أنه حمله معه على عادته من حرصه عليه وأنه سُرق منه . فخرج إلى جعفر معتذراً مستغفراً مما جرى منه وردَّ عليه الدنانير فأبى أن يقبلها، وقال: شيء أخرجته من يدي لله تعالى ... لا أستردُّه.

---

(1) الرسالة القشيرية .

فقال الرجل: من هذا؟! فقيل: جعفر بن محمد الصادق.

وفي ذلك دلالة على كرم جعفر الصادق وحفظه لمروءته وصيانته لعرضه وإعانته للملهوف وشفقته على عباد الله.

❀ ❀ ❀

سارقة الكرخي

يقال نزل معروف الكرخيُّ دجلة ليتوضأ ووضع مصحفه ومِلحفته على شاطئ دجلة، فجاءت امرأة واستغفلته وحملتهما ومضت بهما، فتبعها معروف برفق.

وقال لها: يا أختي، أنا معروف ولا بأس عليك من جهتي، ألك ابن يقرأ القرآن؟! قالت له: لا.

قال: فزوج كذلك؟! فقالت: لا، فقال: فهاتِ المصحف وخذي الثوب.

وذلك لغلبةِ ظنه أنها ما أخذتهما إلا لحاجة! ففيه حسن الظنِّ بالمسلمين أنهم يأخذون من أموال الناس ما دعت حاجتهم إليه.

❀ ❀ ❀

يستر على سارقه

دخل اللصوص مرة دار الشيخ أبي عبد الرحمٰن السُلَّمي رَحِمَهُ اللَّهُ وحملوا ما وجدوا فيها من الأموال، فسمعت بعض أصحابنا يقول: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمٰن يقول: مررت مرَّة بالسوق فرأيت جُبتي على من يزيد[1] فيها ليشتريها فأعرضت عنه ولم ألتفت إليه...

فقد فعل ذلك إمَّا ستراً على سارقها، أو لكونه كان احتسبها عند الله لمَّا سُرقت فكره أن يرجع فيما تركه لله.

❀ ❀ ❀

(1) وهو ما يسمى المزاد العلني وقد فعله النبي ﷺ.

يقبل القبيح

قيل كان لعبد الله الخياط حزيف ـ زبون ـ مجوسي يخيط له ثياباً ويدفع إليه بدل خياطته دراهم زيوفاً ـ أي مزيفة ـ وكان عبد الله يأخذها منه.

فاتفق له أنه قام من حانوته يوماً لشغل، فجاء المجوسي بالدراهم الزيُّوف فدفعها إلى تلميذه فلم يقبلها، فدفع إليه الصِحاح، فلما رجع عبد الله إلى حانوته، قال لتلميذه: أين قميص المجوسي؟! فذكر له القصة. فقال: بئسما عملت!! إنه منذ مدة يعاملني بمثلها وأنا أصبر عليه وآخذها منه وألقيها في بئر لئلا يغترَّ بها غيري.

❀ ❀ ❀

المهدي يستر على امرأة

قال أحمد بن مهديَّ بن رستم: جاءتني امرأة ببغداد فقالت: أكرهت على نفسي[1] وأنا حُبلى وذكرتُ للناس أنك زوجي وأنَّ الحمل منك فلا تفضحني، استرني سترك الله تعالى. قال: فوضعت، فجاء إمام المحلة في جماعة الجيران يهنِّئونني بالولد فأظهرت لهم التهلل ووزنت دينارين ودفعتهما إلى الإمام وقلت أبلغ هذا إلى المرأة فلتنفقه على المولود فإنه سبق ما فرَّق بيني وبينها ـ أي أنه قد طلقها ـ فكنت أدفع كل شهرين دينارين إلى أن أتى على ذلك سنتان ثم توفيَّ المولود، فجاءني الناس يُعزونني فكنتُ أُظهر لهم التسليم والرضا، فجاءتني المرأة ومعها الدنانير فردَّتها، وقالت: سترك الله كما سترتني.

فقلت: هذه الدنانير كانت صلة للمولود وهي لك لأنكِ كنت تربيه[2].

❀ ❀ ❀

(1) أكرهت على نفسي: اغتصبها أحد ما.
(2) أحاسن المحاسن.

طلق خمس نسوة لسوء خُلقه

قال الأصمعي: قلت للرشيد يوماً: بلغني يا أمير المؤمنين أن رجلاً من العرب طلق في يوم خمس نسوة.

قال: إنما يجوز ملك الرجل على أربع نسوة، فكيف طلق خمساً؟

قال: كان لرجل أربع نسوة فدخل عليهنَّ يوماً فوجدهنَّ متلاحيات متنازعات، وكان سيئ الخلق.

فقال: إلى متى هذا التنازع؟ ما أخال هذا الأمر إلا من قبلك، يقول ذلك لامرأة منهنَّ، اذهبي فأنت طالق.

فقالت له صاحبتها: عجلت عليها بالطلاق، ولو أدبتها بغير ذلك لكنت حقيقاً، فقال لها: وأنت أيضاً طالق.

فقالت له الثالثة: قبحك الله، فوالله لقد كانتا إليك محسنتين وعليك مفضلتين، فقال: وأنت أيتها المعددة أياديهما طالق أيضاً.

فقالت له الرابعة: ـ وكانت هلالية[1] وفيها أناة شديدة ـ ضاق صدرك عن أن تؤدب نساءك إلا بالطلاق.

فقال لها: وأنت طالق أيضاً.

وكان ذلك بمسمع جارة له: فأشرفت عليه وقد سمعت كلامه.

فقالت: والله ما شهدت العرب عليك وعلى قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم، أبيت إلا طلاق نسائك في ساعة واحدة.

قال: وأنت أيضاً أيتها المؤنبة المتكلفة طالق إن أجاز زوجك.

فأجابه من داخل بيته: هيه، قد أجزت، قد أجزت!![2].

❀ ❀ ❀

(1) هلالية: من بني هلال.
(2) دولة النساء (سمير المؤمنات).

التواضع من الأخلاق

بلغ عمر بن عبد العزيز ﷺ أنَّ ابناً له اشترى فصًّا ـ خاتم ـ يلبسه بألف درهم، فكتب إليه عمر: بلغني أنك اشتريت فصاً بألف درهم فهذا حال المتكبرين!! فإذا أتاك كتابي هذا فبع الخاتم وأشبع بثمنه ألف بطن، فإنه أفضل لك عند الله واتخذ خاتماً من درهمين فأقلَّ، واجعل فصَّه حديداً صينياً ـ نسبةً إلى بلد الصين ـ وذلك لأنه أثبتُ للنقش عليه لصلابته واكتب عليه:

«رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه» لتتذكر كلما رأيته قدرها وتتواضع لربِّك[1].

خُلق معن بن زائدة

يروى في كتب الأدب أن معن بن زائدة، كان أميراً على العراق وكان حليماً كريماً يُضرب به المثل فيهما، فتقدم إليه أعرابي ممتحن حلمه فقال له:

أتـذكـرُ إذْ لـحـافـكَ جـلـدَ شـاةٍ ... وإذ نـعـلاكَ مـن جـلـدِ الـبـعـيـر

قال: نعم، أذكر ذلك ولا أنساه.

فقال:

فـسـبـحـانَ الـذي أعـطـاكَ مُـلـكـاً ... وعـلـمـكَ الـجـلـوس عـلـى الـسـريـر

قال: سبحانه و تعالى.

قال:

فـلـسـتُ مُـسَـلِّـمـاً إن عـشـتُ دهـراً ... عـلـى مـعـنٍ بـتـسـلـيـمِ الأمـيـر

قال: يا أخا العرب، السلام سنة.

قال:

سـأرحـلُ عـن بـلادٍ أنـت فـيـهـا ... ولـو جـارَ الـزمـان عـلـى الـفـقـيـر

قال: يا أخا العرب إن جاورتنا فمرحباً بك، وإن رحلتَ فمصحوباً بالسلامة.

---

(1) الرسالة القشيرية.

قال :

فـجـدْ لـي يـا بـن نـاقـصـةٍ بـشـيء فـإنـي قـد عـزمـتُ عـلـى الـمـسـيـرِ

قال: أعطوه ألف دينار يستعين بها على سفره، فأخذها وقال :

قـلـيـلٌ مـا أتـيـتَ بـه وإنـي لأطـمـعُ مـنـك بـالـمـالِ الـكـثـيـر

قال: أعطوه ألفاً أُخرى فأخذها.

وقال :

سـألـتُ الله أن يـبـقـيـك ذخـراً فـمـا لـكَ فـي الـبـريـة مـن نـظـيـرِ

فقال: أعطوه ألفاً أُخرى.

فقال الأعرابي: أيها الأمير ما جئت إلا مختبراً حلمك لما بلغني عنك، فلقد جمع الله فيك من الحلم ما لو قُسم على أهل الأرض لكفاهم.

فقال معن: يا غلام، كم أعطيته على نظمه؟

فقال: ثلاثة آلاف دينار.

فقال: أعطه على نثره مثلها، فأخذها ومضى في طريقه شاكراً[1].

❀ ❀ ❀

الخديعة ليست من الأخلاق

قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه لم يخدعني سوى رجل من بني الحرث بن كعب فإني ذكرت امرأة منهم لأتزوجها.

فقال: أيها الأمير لا خير لك فيها . فقلت: ولمَ؟

قال: رأيت رجلاً يُقبِّلها، فأعرضت عنها، فتزوجها الرجل فلمته وقلت له: ألم تخبرني بأنك رأيت رجلاً يُقبّلها . قال: نعم. رأيت أباها يُقبِّلها[1].

❀ ❀ ❀

(1) موسوعة الخطباء المرشدين.

الأخلاق عند الأولياء

حُكي أن بعضهم جاء إلى بعض المشايخ وخدمه . وقال له: أريد أن تعلمني الاسم الأعظم.

فقال له: وفيك أهلية؟ قال: نعم.

قال: اذهب إلى باب البلد ثم أخبرني بما جرى فيه.

فذهب وجلس على باب البلد، فإذا بشيخ حطاب معه حطب على حمار فضربه جندي وأخذ حطبه ظلماً، فلما رجع الرجل إلى الشيخ وأخبره بالقصة، قال له الشيخ: لو كنت تعلم الاسم الأعظم ما تصنع بالجندي؟

قال: كنت أدعو عليه بالهلاك.

فقال له الشيخ: اعلم أن الحطاب هو الذي علمني الاسم الأعظم، واعلم أن الاسم الأعظم لا يصلح إلا لمن يكون على هذه الصفة من الصبر والرحمة على الخَلق والشفقة عليهم[1].

❀ ❀ ❀

الوفاء العجيب

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ : «أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم: فقال: كفى بالله شهيداً. قال: فائتني بكفيل، فقال: كفى بالله كفيلاً، قال: قد صدقت.

فدفعها إليه إلى أجل مسمًّى فخرج للبحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً فأخذ خشبة، فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر، فقال: اللَّهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً، فقلت: كفى

(1) موسوعة الخطباء والمرشدين .

كفى بالله كفيلاً، وسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً.

وإني قد جهدت أن أجد مركباً أن أبعث إليه الذي له، فلم أقدر وإني استودعتها فرمى بها في البحر، حتى ولجت[1] فيه ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار وقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه.

قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرف بالألف دينار راشداً»[2].

❀ ❀ ❀

جريمة في الجاهلية

روي أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كان لا يزال مغتماً بين يدي رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ «**ما لك تكون محزوناً**».

فقال: يا رسول الله إني أذنبت ذنباً في الجاهلية فأخاف أن لا يغفر الله وإن أسلمت، فقال له رسول الله ﷺ: «**أخبرني عن ذلك**»، فقال: يا رسول الله إني كنت من الذين يقتلون بناتهم فولدت لي بنتاً، فتشفعت لي امرأتي أن أتركها، فتركتها حتى كبرت وصارت من أجمل النساء، فخطبوها، فدخلتني الحمية ولم يتحمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج، فقلت لامرأتي إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي، فسُرت بذلك وزينتها بالحُلى والثياب، وأخذت عليَّ المواثيق بألا أخونها، فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرت في البئر ففطنت ابنتي أني أريد أن ألقيها في البئر، فالتزمتني وجعلت تبكي

(1) وَلجت: دخلت ونزلت.
(2) أخرجه البخاري: (2291).

وتقول: يا أبتِ أي شيء تريد أن تفعل بي؟ فرحمتها، ثم نظرت في البئر، فدخلت عليَّ الحمية . ثم التزمتني، وجعلت تقول: يا أبتِ لا تضيع أمانة أمي، فجعلت مرة أنظر في البئر ومرة أنظر إليها فأرحمها، حتى غلبني الشيطان فأخذتها فألقيتها في البئر منكوسة وهي تنادي في البئر: يا أبتِ قتلتني! فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت.

فبكى رسول الله ﷺ ثم قال: «**لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك**».

❀ ❀ ❀

من أخلاق المأمون

حُكي عن القاضي يحيى بن أكثم قال: كنت نائماً ذات ليلة عند المأمون فعطش، فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه وأنا نائم فانتبهت من نومي، فرأيته وقد قام يمشي على أطراف أصابعه، حتى أتى مشربه وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو ثلثمائة خطوة فأخذ منه فشرب، ثم رجع على أطراف أصابعه، حتى قرب من الفراش فخطا خطوات خفيفة كيلا ينبهني حتى صار إلى فراشه.

ثم رأيته آخر الليل وقد قام لقضاء الحاجة وكان يقوم أول الليل وآخره، ولما أتى الفجر قعد طويلاً منتظراً أن أتحرك فيصيح، فلما تحركت وثب قائماً وصاح: يا غلام و تأهب للصلاة ثم جاءني فقال لي: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ وكيف كان مبيتك؟ قلت: خير مبيت، جعلني الله فداءك يا أمير المؤمنين، قد حبب الله إليك سيرة الأنبياء، فهنأك الله تعالى بهذه النفحة وأتمها. وكنت معه يوماً في بستان فجعلنا نمر بالريحان فيأخذ من الطاقة[1] والطاقتين، ويقول لقَيِّم البستان: أصلح هذا الحوض، في هذا الحوض شيء من البقول.

قال يحيى: ومشينا في البستان من أوله إلى آخره، وكنت أمشي مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل، فكان يجذبني لأتحول أنا في الظل وهو في

(1) الطاقة: الحزمة من ريحان، أو زهر .

الشمس، فأمتنع عن ذلك حتى بلغنا آخر البستان.

قال يحيى: لتكوننَّ في مكاني، ولأكونن في مكانك، فقلت: والله يا أمير المؤمنين، لو قدرت يوم الهول أفديك بنفسي لفعلت فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظل، وهو إلى الشمس، وقال: إنه لا خير في صحبة من لا يُنصِف.